

الفصل الدّافئ تالشي

لور غرّيت

عاد وليد حاملاً معه لهانيا خلال حديثه على الهاتف دفا الحنين لوجوده ، مما جعلها تحسّ عبر كلماته ثقة به وبنفسها . وكان خوفها يبتعد عنها بخطى عملاق ، وغمرتها موجة من الحنان وهي تشعر في صوته حرارة انفاسه على وجهها .

وتذكرت القلق الذي كان يرفّ في عيني وليد وهما ينتقلان في شوارع المدينة ، ولكنها كانت تخزّر ان شيئاً ما يشغل فكره ، وانه يحاول ان ياعد ما بينه وبين ذلك بالحديث ، ولكنه حتى منتصف الليل تقريباً لم يكشف لها عن سر قلقه .

وعندما ركنت الى جانبه ساعة كان يوصلها الى بيتها همس في اذنها : « لديّ مفاجأة لك » .

فتساءلت فيما بينها وبين نفسها : « تراه لماذا انتظر حتى نهاية الأمسية حتى يفضي اليّ بالنبا ؟ »

انها تعرف الآن انه لم تكن له الشجاعة على تحمل اضطرابها ساعة تلقي النبا ، فعلاّل الليل سوف تجد الوقت الكافي لتفكر بالأمر وتتقبل الواقع .

لقد كانت هانيا تؤمّل ان ماضي وليد سوف يندثر في العدم ، وانها سيكون بوسعها ان تمضي نشوى بمباهج الواقع خلال معين الشقاء الذي لا ينضب ، وان الايام سوف تردّد بغير نهاية صدى الخطوات في صمت الليالي ، وان فرحها المبهور سوف يعيد عليها ذكريات ماضيه .

ودون حقد ولا دموع راحت يداها تصوّر ان ايماءات الحنان ، فالحياة الغافلة تجهل ضياعها .

ولقد كان بودّها لو ان الحقيقة تفتح عينيها وتباعد ما بينها وبين وظل ذمول الغزلة ،

بينما تسجل الساعة الحذرة ، رويداً رويداً ، الهالة السوداء حول عينيها ، هذه الهالة التي هي شاهد على التمزق القاتل الذي القت بها فيه عواطف صداقتها المتضاربة وتوتر مشاعرهما . فالحق انه لم يعد بوسع هانيا ان تميز اين يبدأ هذيان هواها واين ينتهي . فهو هذيان جنوني . وهي لم تعد تدري حتى ما هو الفرق بين الفصول ، فبرد الشتاء وحرارة الصيف اختلطا بالنسبة اليها في احساس واحد .

لقد غدت الآن تحب أسى الامسيات التي تغمرها العتمة ، حيث تتمدد لحظات الزمن فارغة وتفرد من الازل كأنها لا نهائية العصور .

ان ايام هانيا ووليد المقفرة ، وعذاب الاستفاقة من اللحم ، تبدو وكأنها توارت في البعيد ؛ فهي تلالشى في الامسيات الطويلة حيث يهرب الوسن من العيون ويختلف مكانه الشقاء .

وانها لتصارع الارق ، وتتوسل الى النوم عبثاً ان يلم بما أقيها ، عله يأخذ بيدها نحو شواطئ العدم الرحبية . فليالي الارق هذه شبيهة بالشواطئ الرملية القارسة التي تخادعها في رياح كانون ، وهي مثل الضيق الذي يرح في المناجم المفرغة من معدنها الثمين ، دون ان يبقى لها سوى صدى الاصوات المخنوقة بين الواح اخشابها المتخلعة منذ امد طويل . وتحدث نفسها : « أوه ! لماذا لا يقتل الضجر اللقاءات الحقيقية ، والجروح التي لا تندمل ؟ او لماذا لا يمنح القدسية لأحسن اللحظات ، للشهوة العارمة في اوجها ؟ » وتعود تساءل : « أو من الضروري ان تتناوب نفسها لا بأليّة المدامع والفرح ، وان يتسم بالقداسة الشك والايان ؟ »

كلا ، فليس بوسعها ان تؤمن بقيمة الكلمات والنظرات والاشارات . وان بودها لو حدثت الضجر بالرغاب التي تتبدل وبالشفاه التي تذوب حيث يجعل الحب مخادع الزوجية قفراء . وفي صمت غرفتها هتفت من اعماقها وقد برح بها الأسى : « أو حتم علينا ان نعاود ابدأ تفسير ما تعنيه كل اشارة يقوم بها الانسان ؟ »

اما الآن فان هانيا تعرف بأن الغرفة المقفلة والسرير المشعث يمكن ان تعرض على وليد مشاهد عن ماضيها ، ففي هاتين العينين المحرومتين حتى من الوسن لا يتلامح حتى وجودها . فلقد اسدل وليد على وجهه قناع ماضيه ؛ وفي بعض الاحيان ، كان ركود موت

الحركات والشعور ، وشاطيء العدم حيث يتمازج النعاس وذكريات ماضيه ووجود هانيا ، يعبران سوية في دنيا عينيه .

الكلمات والحركات شلاء ؛ الحب يتولاه الذبول ، يتعب ؛ وعيونهما لا تبوح سوى بالتفاهات ؛ آليّة العادات تزوجت لحظات اللقاء ، والمقابلات المفعمة بالمعنى والصور الجميلة غدت فارغة من محتواها العاطفي .

وهوذا الفجر يرين هادئاً ، وحكمه يدوم ابدأ ، وسوف يقتنص ازلية العدم ، ذلك لان فصل العواطف والنظرات والعناق قد ثلاثي بالنسبة لهانيا . وهي خائفة حتى من نفسها ومن وليد ومن كل ما يحيط بها ، فهي ترى برودة وليد من جديد وفي عينيه تمخر مئات الذكريات .

ولقد خيّل اليها بأنها تخمّن فيهما نوعاً من الرجاء الصامت ، كما لو ان الحقيقة تصارع « المفاجأة » وتودّ لو تنفيها من عالم الواقع وتلقي بها من دنيا الحاضر .

وهي منذ ذلك الحين تصارع امواج يمّ الواقع ولا تعرف كيف تتجاهله لتتحظى بشيء من الراحة ، علّتها تبخر من جديد في دنيا الحلم الوهمي . فلقد اعاد لها الواقع كل صلادة الوعي الذي تهبه الحياة للانسان البالغ ، هذا الوعي الذي يؤكد ان كل شيء باطل ، وان بلاهة استسلامها كمحبة ، وایمانها المطلق بقدرتها وقوتها على تسيير كل ما في العالم الذي نشأ لها من حياتها مع وليد ، كل تلك جميعاً ليست سوى مهزلة رهيبية .

وهي تعرف الآن انها لم تكن اكثر من حجر ضائع في لعبة شطرنج بكل ما فيها . لقد بعث من الموت فجأة كل ماضي وليد ، وترك آثاره على وجه هانيا الواعي : سخرية قدرها .

ولقد خيّل لهانيا انها وجدت في العينين اللتين ترمزان الى مفاجأة وليد مفتاح السر لهذا الماضي البعيد ، والذي كان من حين الى حين يعود الى الظهور في حركاته وكلماته وصمته ؛ وهي قد عرفت كيف تكشف في قسبات طفل اضطراب وجه وليد ، هذا الطفل القادم من بعيد ، وبعيد جداً ، حيث عادت ذكريات وليد وهانيا من الماضي لتدفع بحاضرها بعيداً .

لقد جعل طفل الماضي تتابع الفصول يتلاشى ، ويستسلم للفراغ ؛ واما دفؤها فقد توارى صامتاً عند قدمي الطفل ، الذي غدا من جديد إلهاً للاقدار .